

تنزيه الله وتوحيده بأسمائه

..... دُكر أن قوما من المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك. يعني: أخبرنا بنسبه. أنزل الله تعالى هذه السورة، وفيها لم يلد ولم يولد. كأنهم يقيسون الخالق تعالى على آلهتهم التي كانت متولدة من مثلها يعني الأولياء والصالحين والأنبياء والشهداء ونحوهم الذين يعبدون من دون الله، ينسبون به قالوا: الولي هو فلان وفلان وفلان هذا. رد عليهم أنه تعالى هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وكذلك أيضا روي أن بعض اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا عن ربك. قد علمنا أن الإنسان خلق من طين، وأن السماوات خلقت من بخار البحر مثلا أو غباره، وأن الأرض خلقت من البحر أو من رواسبه، ونحو ذلك، فأخبرنا عن ربك، وهذا سؤال تعنت. كأنهم يقولون: من أي شيء هو؟ ولا شك أن هذا تدخل في علم الغيب الذي لا يجوز التدخل فيه، وكذلك أيضا فيه أنهم يسألون عن الشيء الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيخلق مثل هؤلاء، فقال: صلى الله عليه وسلم { لا يزال الناس يتساءلون من خلق كذا؟ ومن خلق كذا؟ حتى يقولوا: الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: أمنت بالله { أمنت بالله، وفي رواية { فليستعذ بالله ولينته { أي: يعتقد أن الرب سبحانه وتعالى قديم وأنه لم يسبق بعدم، ولو كان مسبوقا بعدم للزم أن يكون الذي خلقه له خالق وهلم جرا، فيلزم التسلسل في الماضي، فإذا أثبت العباد هذا القول أن الخالق هو الخالق وما سواه مخلوقون فإن هذا يقطع وسوسة كل موسوس، ويثبت القول بأن الرب تعالى هو القديم بأسمائه وبصفاته، ولا يجوز التماذي في مثل هذه الوسواس، وكثرة الحديث بها. وقد تقدم الآثار التي فيها: تفكروا في المخلوق، ولا تفكروا في الخالق؛ ولعل ذلك لأجل الاعتقاد بأن الخلق الذين يشاهدون يعرف بأن الذي خلقهم هو المستحق للعبادة حيث { أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } وحيث كمل لهم ما يحتاجون، فخلق الإنسان خلق تام، كما في قوله تعالى: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } إذا تأملت في خلق الإنسان وجدته أحسن خلق بحيث إنه لا يحتاج إلى زيادة عضو، ولو نقص منه عضو لتأثر بحيث أن كل عضو له وظيفته الأعضاء الظاهرة والأعضاء الباطنة والمفاصل والعظام وما أشبهها، فهو دليل على أن الذي خلقه هو على كل شيء قدير، وأنه لم يكن ليخلق نفسه.